إثنوغرافيا الواقع في أدب الرّحلة الجزائري "صورة الواقع وجماليّة المتخيّل"

Ethnography of Reality in the literature of the Algerian journey

(The image of reality and the aesthetic of the imaginary)

د. صالح قسيس

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج – الجزائر

guessis11@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/09/13	تاريخ القبول: 2018/10/30	تاريخ النشر: 2019/02/10

مُلخّص البحث

تعدّ الرّحلة مغامرة بحث في حقائق الوجود، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها عبر العصور، تنفرد بنقل تجارب الأخر، فالرّحالة وهو يجوب مشارق الأرض ومغاربها يعمل على الاتصال بالمحيط الخارجي اتصالا يساعد على تحقيق أهداف وغايات، من خلالها يتمكن من اكتشاف مغاليق الموجودات من جهة، و معرفة الآخر للتأثير فيه والتأثر به من جهة أخرى، ناقلا تجاربه بلون أدبيّ فريد يجمع بعض خصائص القصة والرّواية والسيرة .

من هنا تحاول هذه الورقة البحثية المعنونةب : إثنوغرافيا الواقع في أدب الرحلة الجزائري صورة الواقع وجمالية المتخيل لتطرح إشكاليّة الأدب الرّحلي الجزائري ومعالم الاغتراب واثنوغرافيا الواقع فيه.

الكلمات المفتاحية : رحلة ؛اثنوغرافيا ؛ رحّالة ؛ أدب الرّحلة.

Abstract:

The journey is regarded as an adventure in the reality of existence, which is a real record of the various aspects of life and people'sconcepts through the ages. It is individualized with the transfer of the experiences of the other. So, the traveller while traveling the outskirts of the earth is trying to connect to the outer ocean to the extent it helps achieve goals and objectives, through which he can discover the assets on one hand, and the knowledge of the other to influence him and be influenced on the other hand,

conveying his experiences in a unique literary color that combines some characteristics of the story, novel and biography.

Key words:Journey, Ethnography, Traveller, Journey Literature

تمهيد:

تشير كتب التاريخ والأنثروبولوجيا إلى أنّ الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتّنقل حتى بعد أن تعلّم الزّراعة، وعرف كيف يستقرّ ويؤسّس المجتمعات، فقد ظلّ عبر العصور ومازال يتطلّع إلى الآفاق البعيدة فلم يكف عن التّفكير فيما يضمّه هذا الكون الفسيح من الموجودات، وما يحمله من كنوز وخيرات .

وهو إلى جانب هذا شغوف بمعرفة موضع الشّمس الّذي منه تشرق، وإلى معرفة مسكنها الّذي إليه تغرب، مسكون بهاجس منبع النّهر الّذي يجري على أرضه، من أين مصبّه وأين منتهاه مسكون بهاجس المحيط من وكيف يعيش؟ من هم على الجهة المقابلة له ؟وهكذا كلّما مرّت به السّنوات زادت رغبته وتحركت فطرته في خوض المجهول لكشف المستور الّذي لا سبيل للوصول إليه إلاّ باتخاذ أسباب المعرفة، ولا يتأتّى له ذلك إلاّ بالتّرحال أو السّفر أو الهجرة كما تسمى غالبا، علّه يشبع نهمه ويحقّق مراده ولما جمع ما أمكنه جمعه وصنف ما استطاع تصنيفه، راح يضعه تحت عنوان أدب الرّحلة، فما هو يا ترى هذا الأدب ؟

التعريف بأدب الرّحلة :

أدب الرّحلة لون أدبيّ له بواعثه وخصائصه و أدواته الفنيّة ورؤاه المضمونيّة، يتّخذ من الوقائع مادّة له، يقدّم المعلومات في قالب أدبيّ، بحيث يعمد إلى نقل عادات وغرائب البلدان والأمصار، فيعمد الأديب الرّحالة بقدراته ومهاراته إلى تقديم المشاهد والرّؤى والأحداث الرّحليّة من خلال ذاته المتّحدة باللّحظة الّتي عاين فيها الأماكن، بمشاهدها ووقائعها سواء في لحظتها أو عند عودته إلى الدّيار، يسجّل هو أو يكلّف من يتقن الكتابة الفنيّة بتسجيل ما يسرده عليه، فكانت بذلك الرّحلة الأدبيّة ارتحالا في ذات الأديب، قبل أن تكون رصدا ثمّ نقلا للمعالم المرتحل إليها.

ولما كان هذا حالها، فقد أسهمت بشكل لافت في قراءة مظاهر الحضارات، اعتمادا على عنصري المشاهدة والمعايشة، فنجده معجبا ببعض الآداب والعادات تارة، وتارة أخرى حائرا ومندهشا من غرائبها ونظرا لتعدّد الرؤى حول هذا اللّون الأدبيّ، ورغم حداثته فقد قدّم الدّارسون لأدب الرّحلة مجموعة من الدراسات انطلاقا من العناصر الفاعلة فيه و الممارسة له، لا من حيث بنيته الاصطلاحيّة فقط، ولا من حيث كونه لونا أدبيا له خصائصه ومميزاته، بل من جميع النّواحي المتّحدة في تشكيله عبر العصور.

ومع قلّة الدراسات التي تعرضت له فإنّها تشير — في معظمها – إلى كونه، من حيث التّأصيل اللّغوي، "الرحلة مصدر من الفعل رحل، رحلا، ورحيلا، بمعنى انتقل من مكان إلى آخر ورحلت نفسي أي صبرت على آذاه[1].

أمّا من حيث المعنى الاصطلاحيّ فأدب الرّحلة Literature de voyage أو الأدب الجغرافي أو السياحي كما يسميه البعض هو "مجموعة من الآثار الأدبيّة التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي شاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد "[2].

وإذا كان هذا التّعريف يحدّد أدب الرّحلة بأدبياتها، فعلى النّقيض من ذلك يرى بعض الدّارسين الّذين يرون بأنّ أدب الرّحلة تأليف نثريّ، يتحدث الأديب فيه عن رحلة تجشّم مشاقها ومرّ خلالها بمدن وقرى، عبر جبال وأوديّة وصحاري، واجه من خلالها أحداثا ولقي مفاجآت وغرائب لا يعرفها في بيئته فهو أدب" يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته من عمران، وأحداث، وأشخاص، وعادات، وتقاليد "[3] فهما تعريفان يتّفقان على أنّ الأديب من خلاله يصوّر ما جرى له من أحداث، وما صادفه أثناء رحلة قام بها، فتحدّد بذلك الرّحلة بأدبيّة أسلوبها ممّا يخرجها من الرّحلات الأخرى ذات الأهداف العلميّة البحتة .

وعلى هذا الأساس وتأسيسا على ما سبق نصل إلى تكوين مفهوم دقيق لأدب الرّحلة، بأنّه ذلك اللّون الأدبيّ الّذي يسجل فيه أصحابه في كتب ومقالات مشاهداتهم

وحوادثهم ورؤاهم الرّحليّة على اختلافها وتنوعها، من خلال شعورهم بها، ورؤيتهم لها في لغة أدبيّة موحيّة جامعة لخصائص السّيرة الذاتيّة والقصّة والرّواية، لما فيهم من خصائص فنيّة تساعد الرّحلي الأديب على إيصال رسائله الفكريّة بطريقة فنيّة جذابة.

الرحلة مطلب إنسانيّ: يقول شوقي ضيف "الإنسان ولد رحالا،وإن أعجزته الرّحلة تخيّل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال "[4] فالإنسان منذ الزّمن الغابر كان يجوب مشارق الأرض ومغاربها كاشفا أسرارها مرّة، طالبا لغريزة السّطوة والسّيطرة والتّملك مرات عديدة، بل هي عند طائفة من البشر أسمى و أرقى من ذلك، هي وسيلة بل ومنهج لنشر الخير والحبّ، وحثّ النّاس على مكارم الأخلاق وعبادة الواحد الأحد، إنّهم الأنبياء والرّسل، إذ لطالما عمل فريق منهم على التّرحال في فجاج الأرض لدعوة النّاس إلى التّوحيد ونبذ الشّرك، ولقد أشار القرآن الكريم إلى الرّحلة في شبه الجزيرة العربيّة في سورة قريش فقال: (لِإِيلَافِ قُرَيْش (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش1-4) وفيها إشارة واضحة إلى أنّ العرب قد كانوا يمارسون الرّحلة في فترتين من العام، فصل الشّتاء وفصل الصّيف، الأولى لليمن والثانيّة للشّام، فلقد كان أهل مكة يألفون الرّحلة والأسفار بغرض التّجارة و زادت رغبتهم في التّنقل والارتحال بعد انتشار الإسلام، ونزول آيات قرآنية تحثّ على ذلك منها قوله **عز وجل** :(قُلْ سِيرواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ " (الأنعام 15)

وقوله أيضا : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) الملك 15.

وقوله أيضا :(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ)يوسف 109.

فالقرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى وكلمة الله إلى البشر، دعا إلى الترحال والضرب في الأرض لإغراض، شتى بعضها ديني وبعضها اجتماعي، بل وخروج من دائرة الظلم والاضطهاد المسلط عليهم من الحكام فيقول على لسان الملائكة (قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ

وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) النساء 97.وفي هذا دلالة على أن الإنسان في رحلة دائمة في هذه الحياة الدنيا منذ أن كان جنينا إلى أن ينقضي نحبه في كدح دائم وكفاح مستمر[5].

كما سجّل الشعراء قديما وبطريقة مقتضبة رحلاتهم في عديد المرات، وظّفت النّاقة على اعتبارها وسيلة للسّفر رمزا له، إذ يقول **الأعشى** في معلقته:

ودّعْ هريرةَ إنْ الركبَ مرتحلُ

وهلْ تطيقُ وداعاً أيها الرّجلُ؟

غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها

تَمشِي الهُوينا كما يَمشِي الوَجي الوَحِلُ

كَأنّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جارَتِهَا

مرّ السّحابةِ ، لا ريثٌ ولا عجلُ [6]

ويقول آخر – ماني الموسوس – ترّسم مشهدا دراميا يصف ألم رحيل المحبوب وجنونه في تذكرها :

لما أناخوا قُبَيل الصبحِ عيسهُمُ وثوّروها فثارتْ بالهوى الإبِلُ

وأبرزتْ من خلال السّجفِ ناظرَها ترنو إليّ و دمعُ العينِ ينهملُ

وودّعتْ بِبَنانٍ خِلتُهُ عَنَـــــــــماً فقلتُ:لا حمَلتْ رحلاكَ يا جمَلُ

ويلي من البين ما ذا حلّ بي و بـــــــها من نازحِ الوجد حلَّ البينُ فارتحــلوا

ويقول **طرفة**:

لِخَوْلَةَ أطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْـــــمَدِ

تلُوحُ كَباقي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وُقوفاً بِها صَحْبِي عَليَّ مَطِيَّهُمْ

يقولونَ لا تَهْلِكْ أسًـــــى وتَجَلَّدِ

كأنَّ حُدوجَ المـــــالِكِيَّةِ غُدْوَةً

خَلا ياسَفينٍ بالنَّواصِفِ مِنْ دَدِ[7]

هذه الأبيات وغيرها كثر، أسقطت على النّاقة كمعلم من معالم الجزيرة العربية، وكيف تحملت مشاق الرحلة ومصاعبها وهي تحملهم إلى أماكن بعيدة علما أن حياتهم في كثير من المرات غير مستقرة، فهم على الدّوام في حلّ وترحال.بل وهناك من دعا إليها صراحة لاكتساب المعارف والخبرات ومن ذلك قول **الشافعي** :

سَافرْ تجِدْ عوضًا عمَّنْ تُفارِقُه

وانصبْ فإنَّ لذِيذَ العَيْشِ في النَّصبِ

إنّي رَأيْتُ وُقوفَ الماءِ يُفسِدُه

إنْ سَالَ طَابَ وإنْ لم يَسِل لم يَطبِ

والشَّمسُ لو وَقَفتْ في الفُلكِ دائمةً

لمَلّهَا النّاسُ منْ عَجمٍ وَمنْ عُرب [8]

فالعرب عرفوا السّفر ومارسوا التّرحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المتاخمة لها، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف وأبحرت سفنهم في مياه المحيط الهندي حيث اتجهوا شرقا نحو الهند، وغربا صوب إفريقيا، كلّ هذا قبل مجيء الإسلام الّذي وسّع بدوره آفاق الرّحلة العربيّة معدّدا دوافعها فبلغت ذروتها، وارتفع شأنها وقيمتها خصوصا خلال فترة الفتوحات، وما تلاها من عصر الاستقرار والازدهار والمعرفة والحضارة حتى مشارف القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي .

ولما بدأت معالم التّدهور تصيب كافة مجالات الحياة بما في ذلك الرّحلات التي خبا نشاطها وهزلت مادتها عدا بعض الاستثناءات من بينها "رحلات **أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي** الملقب **بابن بطوطة** 779/703هـ) والمؤرخ الرحالة **عبد الرحمان بن خلدون** (808/732هـ)"[9] الذي نوّه بأهميّة الرّحلات فلا بدّ منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّحال. وهو إذ يشيد بها فلأنّه قد ساح في الأرض، واقفا على عديد الثقافات التي استلهم منها مادّة حيّة لمقدمته هذا ما أورده **فؤاد قنديل** في كتابه أدب الرّحلة في التراث العربي موردا محطة من محطات رحلات ابن خلدون الّذي وصف سفره مع السّلطان إلى بيت المقدس يقول: " وصلت

إلى القدس ودخلت المسجد وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعففت عن الدخول إلى بيت القمامة "كنيسة القيامة" لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم فنكرته نفسي ونكرت الدخول إليه، وقضيت من سنن الزيادة ونافلتها ما يجب، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام ومررت في طريقي إليه ببيت لحم وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور، منجدة مصطفة مرقوم على رؤوسها ملوك القياصرة وتواريخ دولهم مسيرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالترجمة العارفين لأوضاعها وقد يشهد هذا المصنع ملك القياصرة وضخامة دولتهم ثم ارتحلت من مدافن الخليل إلى غزة، وارتحلت منها فوافيت السلطان بظاهر مصر ودخلت ركابه أواخر شهر رمضان سنة اثنين وثمانمائة "[10] هذه إشارة طفيفة إلى فيض من رحلات ابن خلدون والتي سجّل من خلالها سيرته.

وهناك وجه آخر من وجوه الرّحلة ألا وهو الرّحلة العلميّة "فالرحلة في طلب العلم ظاهرة قديمة نشأت بنشأة الحضارات الكبرى التي تفاعلت سلما وحربا، وتبادلت فيما بينها عوامل التأثير والتأثر، فكل حضارة لاحقة تأخذ من أصول وروافد حضارة سابقة " [11]، والرأي نفسه يذهب إليه **أبو الحسن المسعودي** بقوله " ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الاقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه "[12] فالشخص قبل الرحلة ليس هو نفسه بعدها، ولا الجماعة كذلك فهو يشيد بها داع إلى سلك دربها.

وإلى جانب السّعي في طلب العلم والاستفادة من العلماء، كان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كلّ ضامر إلى الرّحلة، فتحكي لنا كتب التاريخ ومذكرات الرّحالة أنفسهم، بأنّ العديد من الحكام والسلاطين قد أقاموا على الطرق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج، وعهدوا إلى الجنود مهمة تأمين طريق الحج وحماية سالكيه، هذا ولم يقتصر الرّحلة على طلب العلم والحج فقط بل تعدّاها إلى التّجارة بحيث بلغت في العصر الإسلامي شأنا لم تبلغه أي أمة قبل عصر الاكتشافات

الجغرافية الأوروبية، ومن أشهر من عرف من الرّحالة التجار "**التاجر سليمان السيرافي**" وبعده بعقود "**ياقوت الحموي**" مؤلف معجم البلدان .

إضافة إلى هذه الأنواع ظهر نوع آخر من الرّحلات وهو هي الرّحلة التّكليفية، بحيث كانت ترسل البعثات لأغراض إدارية، لذا فأغراض الرحلة متعددة منذ الأزل، فهناك من ارتحل لأغراض دينية وهناك من ارتحل لأغراض علميّة تعليميّة، وهناك من ارتحل لأغراض سياسية، وهناك من ارتحل لأغراض اقتصادية، وهناك من ارتحل لأغراض سياحية ثقافية ...إلخ.

هذا ولم يقتصر هذا الفن على العرب فقط فنجد أن المصريين القدامى عام 1493 قبل الميلاد تعد رحلاتهم من أقدم التجارب الإثنوغرافيّة، وذلك حين أبحر في النيل صوب جنوب مصر أسطول مكون من خمسين مركبا وعلى كلّ مركب ثلاثون فردا لغرض تسويق تجارتهم النفيسة [13]، هذا في الشرق أمّا في الغرب فقد قدم لنا الإغريقي **هيرودتس** – عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد – في كتابه التواريخ معلومات في تسعة فصول عن حوالي خمسين شعبا من خلال رحلاته إلى جانب وصفه الدّقيق للحرب الّتي دارت بين الفرس والإغريق إبّان القرن الخامس قبل الميلاد كما وصف مصر وليبيا .

هكذا توالى الأدب الرّحلي عند الغرب، فبرز أشهر رحّالة عرفته أوروبا وهو **ماركو بولو** – 1324/1254 الرّحالة الشّاب الّذي صاحب والده وعمّه صوب الشّرق حتى الصين مسجلا عديد الأحداث الّتي بها ذاع صيته، ودخل بها التّاريخ كأعظم رحّالة في العصور الوسطى تاركا وصفا أمينا مكتوبا للبلاد التي زارها والشعوب التي أقام بينها، وتحدث عن بلاد وأناس لم يسمع بهم مواطنوه من قبل، من هنا احتل مكانا بارزا في تاريخ الرحلات والكشوف الجغرافية والكتابات الإثنوغرافية المبكرة، فقد كان **ماركو بولو** أوّل أوروبي تحدث عن البلاط في بيكين، وأوّل من كشف القناع عن غنى الصين واتساع رقعتها، وتحدث عن الأمم التي تقع على حدودها، وأوّل من ذكر شيئا عن التبت، وأوّل من تحدث عن بورما ولاوس وسيام واليابان، وكان أوّل رحالة أوروبي يحملنا جنوبا إلى زنزبار،

وجز نيكوبار، ومدغشقر ويصل بنا شمالا إلى المناطق النائيّة في سيبيريا وعلى سواحل المحيط القطبي .

هذا وإذا كانت رحلات **ماركوبولو** برّية في الغالب منطلقة من الغرب صوب الشّرق شأنه شأن **ابن بطوطة** و "**ابن جبير** الذي تجلت قدرته على الملاحظة وملكته في النقد والحكم "[14] فإنّ من جاء بعده من الغربيين من أمثال **فاسكوداجاما**(1524/1460) و**كولومبس**(1506/1541) **وماجلان** (1521/1480)اشتهروا كرواد لرحلات برية في الغالب، اتجه فيها **داجاما** من الشمال إلى الجنوب، بينما قصد **كولومبس** و**ماجلان** الغرب البعيد عبر المحيط المفتوح، وهكذا توالت الرحلات الأوروبية وصولا إلى العصر الحديث أين اتخذت منحى آخر ظهر في شكر حملات استكشافية ذات طابع استعماري.

معالم الرّحلة الجزائريّة الحديثة مميزاتها وأهدافها :

عرف الأدب الجزائري كغيره من الآداب أدب الرّحلة الذي كتب فيه الجزائريون مسجّلين فيه ما حلّ بهم غداة ترحالهم، مسجلين من خلالها مغامراتهم الرحليّة، وما شهدوه من معالم طبيعيّة و أخرى فكريّة، واجتماعيّة ومنهم نذكر **ابن حمدوش** و **أبا منصور العامري التلمساني**، و**سعيد بن عبد الله المنداسي وسيدي الحسين الورثلاني وأحمد المقري** وغيرهم من الذين جابوا البلاد العربية والغربية لاكتشافها. هذا في القديم أمّا حديثا فإنّ التّلاقح الثّقافي، والحملات الاستعماريّة والنّهضة الحديثة أفرزت دواع أخرى للسفر، وإن كانت في معظمها أسبابا دافعة نتيجة للطّوق المفروض على المثقف العربي عامة والجزائري بخاصة، فنجد عديد الأدباء الجزائريين الّذين سجّلوا ما عند الآخر من أفكار وأنماط معيشة، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر :**أحمد توفيق المدني، محمد خير الدين، محمد الصالح رمضان،محمد نسيب،بدر الحاج أحمد بن حمو،عبد الباقي الحسيني الجزائري، محمد الساسي بلحاج الزقيمي السوفي، مالك بن نبي، أحمد رضا حوحو، كاتب ياسين محمد الصالح رمضان، محمد باعلي الشريف** الّذي يقول عن الفرنسيين "ولهم محبة في تبديل وتغير سائر الأمور لا سيما

اللباس فإنه غير مقرر عندهم وليس ذلك التغيير كليا "[15] فنجده يصوّر لنا نمط معيشة الآخر وفي ذلك اعجاب وانبهار بمستوى الحضارة الغربيّة، فليس من شك أنّ السّفر جامعة حافلة بالدّروس والمواعظ، تحشد بالعلم والمعرفة، تشحذ العقل والوجدان وتزيد من الفهم والإدراك، تصقل الشّخصية بفضل قسوة التّجربة وحرارة الموقف ورهبة المغامرة وطلعة الجديد في كلّ شأن ومواجهة المفاجآت، وتحمّل مشاق الغربة والتّرحال والإطلاع على الطبائع المختلفة والاعتياد على الغريب والتمرس بمعاملته [16]، ويبقى التدريب على استعمال اللغة الجديدة هو المعين على كشف المغاليق من الأقوال والغامض من الأحوال، لذا لم يَعْدُ الكاتب الفرنسي **سافاري** الحقيقة بقوله الرّحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وعلى هذا الأساس حينما نزل الأدباء الجزائريون بلاد الآخر واندمجوا معهم نقلوا إلينا بعضا من توجهاته الفكرية والإيديولوجية وحتى الاقتصادية ومثال ذلك قول **رضا حوحو** عن الاشتراكيّة في الاتحاد السوفيتي " فما عليك إلا أن تفهم القاعدة البسيطة التي بنيت عليها الاشتراكية، وسارت على ضوئها، وهي لا يجوز استغلال الإنسان لأخيه الإنسان "[17]، أمّا القيمة الأدبيّة للرّحلات الجزائريّة فإنّها تتجلى فيما تعرض إليه من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

والملاحظ على الرّحلة الجزائريّة أنّها حملت في طيّاتها خصوصيّة اجتماعيّة وثقافيّة وفكرية، ساعدت الأديب الجزائريّ على مجاراة الواقع بكل تمظهراته ؛موسّعة دائرة وعيه انطلاقا من واقع معيش مفروض عليه في كثير من الأحيان سواء قبل أو أثناء أو بعد الاستقلال ، أين وجد المفكر والأديب الجزائريّ بل وحتى الفرد نفسه في كثير من الأحيان مجبرا على البحث عن منفذ يخرجه ويخرج الجزائريين من الطّوق المفروض عليه،أو ما خلّفه المستعمر بعد ما أخرج من الجزائر، إنها تراكمات على مستوى جميع الأصعدة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية فراح يعلن ولاءه لهويّته انطلاقا من تأملات الرّحلي، ممّا جعله يجسّد رؤيته بطريقة فنيّة وواقعيّة، وهذا ما أكّده **عمر بن قينة** في كتابه رحلات ورحالون، بوجود رؤى مختلفة تهدف الرّحلة إلى عرضها تبعا للإيديولوجيات المتباينة لأصحابها وفقا للمذهب المتبنى من طرفهم .

ونجد الشيخ **باعزيز** مثالا للرّحلة الحجازيّة، حينما يصف نزوله بأرض المدينة المنورة فيقول " ما أشدّ فرحتنا ونحن نضع أقدامنا في منازل الوحي في وقت أخذت الشمس ترسل أشعتها عليه، فتزيدها بهاء ونورا، فحمدنا السرى وعمنا الابتهاج لرؤية هضبات المدينة وروابيها، وكانت فرحة الجميع عظيمة يعجز القلم عن وصفها "[18] فنجده بأسلوب بسيط، ولغة لا تكلف ولا إسفاف فيها – وهي سمة أدب الرّحلة الجزائري في معظمه – يصور لنا انبهارهم وغبطتهم بالمدينة المنورة، فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوّق إلى أدائها كافة النّاس، وليس علماؤهم وفقهاؤهم فقط، وبهذا اكتسبت هذه الشّعيرة صفة شعبيّة تراثيّة ، فتعبيره هذا يحيلنا على اللّمسات الأدبيّة في الرّحلة كونه ينفعل ويتأثر مصورا لنا شعوره وشعور من رافقه، حينما وقفوا على أرض مهبط الوحي، وهنا مكمن الأدبيّة ولو وصف لنا الأشياء بنوع من التجرد لأصبح مؤرخا لا أديبا لأن حظ الخيال في رحلته يكون قليلا[19] .

إثنوغرافيا الواقع في الأدب الرحلي الجزائري:

تعرضنا فيما سبق إلى أدب الرّحلة، فبدا لنا الرّحالة في حقيقتهم مكتشفين لبقاع المعمورة يصفون جبالها وأنهارها ؛فيافيها وروابيها وحياة قاطنيها شاهدين على أحداث تاريخيّة وقعت فيها، ناقلين أخبار القوم، مقدمين تحليلا لنفسيتهم وتفكيرهم ونمط معيشتهم، واصفين حياتهم البدويّة أو الحضريّة، بهدف نقل شهادة عن واقع عصر ومحيط مكان بقالب فني أصيل.

والإثنوغرافيا "كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة، يقابلها مصطلح آخر وهو الإثنولوجيا الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوغرافيّة "[20] لغايات متعدّدة أهمها تكوين تصورات نظريّة حول واقع النّظم الاجتماعيّة من حيث أصولها وتفرعاتها، ممّا جعل المادة الإثنوغرافيّة تشكل وسيلة هامة للدراسات الإثنولوجية .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نحدّد موضوع الإثنوغرافيا أكاديميا بأنّه الوصف الدّقيق والمترابط للمجتمعات الإنسانيّة، يختص موضوعه أساسا بوصف طبائع البلدان وخصال أهلها وأسلوب حياتهم . لذلك نجد من الرحالة من اهتم بوصف الأقاليم وطبائع السكان، ومنهم من أسهب في وصف عادات وتقاليد أفراد الجماعات في الأماكن الّتي زارها أو أقام بها ، وهذا ما نقف عنده في هذا الوصف **لشمس الدين بن عبد الله المقدسي** في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم كمثال للرّحالة الإثنوغرافي "هو أجل الأقاليم و أكثرها أجلة وعلماء، ومعدن البر ومستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم، ملكه أجل الملوك وجنده خير الجنود، قوم أولو بأس شديد ورأي سديد واسم كبير ومال مديد، وخيل ورجل وفتح ونصر وقوم، كما كتب إلى عمر لباسهم الحديد وأكلهم القديد وشربهم الجليد، ترى به رساتيق جليلة، وقرى نفيسة وأشجار ملتفة وأنهار جارية ونعما ظاهرة ونواحي واسعة، ودينا مستقيما وعدلا مقيما في دولة أبد منصورة، مؤيدة ومملكة جعلها الله عليهم مؤيدة، فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك ويملك في غيره من كان فيه مملوك، هو سيد الترك وترس الغز وهول الروم،ومفاخر المسلمين، ومعدن الراسخين، ومنعش الحرمين وصاحب الجانبين، وجزيرة العرب أوسع منه رقعة غير أنه أعمر منها وأكثر كورا وأموالا وأعمالا "[21].

فهذا النّص القصير يتعرض فيه **المقدسي** إلى وصف بلاد المشرق وطباع أهلها وسبل العيش فيها وغالبا ما يكون هذا الوصف بالمكوث المطول بها، أو بالاعتماد على المخبرين الثّقاة في حال تعسر بلوغ أقاليمها، فيطلعونه على ما لم يستطيعون الوصول إليه، ويشرحون ما استعصى عليهم فهمه، كلّ هذا بالتّحلى بالصبر على مشاق السّفر وقسوة الغربة .

وهنا نصل عند مصطلح ثان وهو الاغتراب وهو مصطلح مأخوذ من الغربة، ورد في المعاجم العربية بمعنى "النزوح عن الوطن، فغرب فلان يغرب غربا بمعنى تنحيه،ويقال غرب في الأرض إذا أمعن فيها والغرب هو المغرب والتنحي"[22] وأغرب القوم أي انتووا والغرباء هم الأباعد، والاغتراب الابتعاد عن الوطن، واغترب الرجل نكح في الغرائب"[23] وعليه

فمصطلح الاغتراب يدل في عمومه على السّفر خارج الوطن، لغايات متعددة سبق ذكرها، وقد يكون هذا السّفر عن طواعية أو بإكراه.

أمّا الغربة فهي في مدلولها اللغوي تقارب مصطلح الاغتراب من حيث الباعث، إلاّ أنها تختلف عنه في جانبها النّفسيّ، إذ يشعر الغريب في غربته بعدم الانتماء إلى البلد المرتحل إليه، ممّا يجعله حريصا على تصرفاته فيتّحد بالمكان اتحاد كليا، فتمكنه الرّحلة من التّفكير والتّنقل في المكان بحيويّة يمارس فيها نشاطه جاعلا من تجربته الرّحليّة محطّة يستلهم منها الآخرون تصوراتهم حول المكان بجمالياته، إيجابياته وسلبياته، وهذا ما نقف عليه في هذا المقطع من مدونة " عائد في الصحراء " **لحسان الجيلاني** الّذي يقول فيه واصفا الصحراء الغربية " فالميزة العامة للشعوب العربية الصحراوية أنها أصيلة في ثقافتها، معتمدة على نفسا في معيشتها، وذكية إلى حد العبقرية في اختراع الوسائل التي من شأنها التغلب على الطبيعة، وعلى جميع الصعوبات لقد وجدنا أنهم لا يعانون من أزمة مياه كما نحن نعاني، ولا يعانون من ازمة غذاء كما تعاني دولتنا العظمى "[24] فهو في هذا ينقل لنا ما شهده عند أبناء الصّحراء الغربيّة من تفان في العمل رغم محدودية الإمكانيات للحفاظ على حياتهم رغم قسوتها، إلاّ أنّه قد بالغ في إطرائه للقوم بقوله أنّهم لا يعانون أزمة ماء ولا غذاء، و الشّواهد تقول أنّهم يتلقون مساعدات غذائيّة من كلّ بلاد العالم، بل وتخصص لهم معاشات كون بلدهم صحراوي يفتقر لمقومات الحياة.

كما نجده وهو يعيش بين أفراد الشّعب الصّحراوي تتحرك فيه شعلة حب الوطن، مستذكرا لحظات جميلة عاشها في وطنه، بعد ما أُعلن وقف إطلاق النّار وبزوغ نور الحريّة فيقول : " ومرت بذاكرتي صورة حية من تاريخ بلادي عندما أعلنت الجزائر وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 وكنت طفلا يافعا وغمرت الفرحة كافة الشعب الجزائري"[25]. فهنا رغم ابتعاده عن أهله ووطنه، إلاّ أنّ الرّحالة يبقى متصلا روحيا بوطنه فتتحرك جوارحه، وتتّقد جذوة الوطنيّة فيه كلما لاح له وميض الوطن من خلال لوحات فنيّة، أو أغان وطنية أو تظاهرات تشابه التظاهرات التي عايشها في وطنه.

نماذج أثنوغرافية في الرحلة الجزائرية :كثيرة هي النّماذج الإثنوغرافيّة في الرحلة الجزائرية قديما وحديثا، فهذا **مالك بن نبي** يسرد رحلاته التي تعدّت حدود الوطن، راجيا منها مطلبا علميّا صرفا فبعد أن صال وجال في مناطق متعدّدة بدأ يشعر بالرتابة والضيق إذ يقول " تبسة غدت خانقة، لقد سئمت النادي ومقهى (باهي) وحكاياته حتى نفسي أيضا، وكنت أسلّي عن نفسي أحيانا بالذهاب بضعة أيام إلى دوار الأرانب "[26]، ونظرا لنبوغه في العلم والمعرفة لقي تشجيعا من والديه للسّفر نحو فرنسا للانتفاع بمختلف العلوم والمعارف، أسوة ببعض الدارسين في وقته، فيقول :" سوف نرسل لك كلّ شهر ما تحتاجه ...وأقلتني الباخرة بعد أيام إلى عنابة في طريقي إلى باريس " [27]وهي التّجربة النّاضجة في حياة مالك بن نبي التي أضفى عليها كثيرا من ابتكاراته النقدية .

أمّا رحلته الثانيّة فكانت نحو الحجاز يقول عنها: " فتأكدت لي فكرة السفر إلى الحجاز، فرارا من العيش في أرض استعمار أو أرض مستعمرة لأني سئمت فيها الوجوه والآفاق " [28] ، ففي قوله إشارة إلى تحمسّه للسفر بغية التّحصيل العلمي، فشدّ الرّحال إلى ما نوى إلاّ أنّه وفي طريقه إلى الحجاز غيّر مساره نحو الشّام، قاصدا سوريا للوقوف على بعض معالمها، ولما نزل بأرض معرّة النعمان تذكر أبا العلاء المعري فراح يسأل عن مرقده ولما وصل إليه راح يقف عنده موقف المترحم، سائلا له المغفرة والرّحمة " فتذكرت أبا العلاء المعري، فقلت إذن ههنا يرقد أبو العلاء المعري، فقالوا إنه قريب من هنا، فذهبت رأسا إلى المقبرة أسأل، عرفت قبره من بين القبور من بعيد بمظهره الذي يمثل تقشف المعري، وزهده بأجلى مظهريهما وعندما وقفت على قبره وقرأت الفاتحة رأيت كتابة على لوح القبر"هذا ماجناه أبي عليّ وما جنيت على أحد "[29]، ومكث في دمشق يطلب العلم من مشايخها، ثمّ نزل إلى الحجاز وأدى فريضة الحج، وكان سرده عنها مقتضبا، ولما أتمّ المناسك عاد إلى دمشق مرّة ثانيّة، ومنها انتقل إلى الأردن ثمّ إلى القاهرة وبعدها إلى طرابلس، ومنها إلى الزيتونة، ثمّ دخل أرض الوطن، وكان في كلّ بلد يحل فيه يزور معاهده العلمية يتزود منها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهي الرحلة الكبرى في حياة مالك بن نبي صاحب العقل الراجح والعلم الغزير.

وإذا كان مالك بن نبي كما سبق ذكره قد قدّم لنا صوّرا مشهديّة يسرد لنا من خلالها جولاته المختلفة في مشارق الأرض ومغاربها ؛فكذلك نلفي الرّحالة **حسان الجيلاني** قد خاض التجربة نفسها – تجربة الرّحلة–، إذ صور لنا جوانب من رحلته الإثنوغرافيّة الّتي جاب من خلالها مناطق من الصحراء الغربية، فيقول " الشعب الصحراوي لا يعرف معنى عدم الاختلاط، فالمرأة إلى جانب الرجل والشاب إلى جانب الشابة والكل يعيش في أمن وأمان ...واطمئنان ويسهر الجميع إلى ما بعد منتصف الليل دون أن يعتدي أحد على واحدة، ودون ان ترى مظهرا من مظاهر العنف "[30] .فهو بنوع من الانبهار يحدثنا عما لمسه من توازن بسيكولوجي عند هذا الشّعب، فهم بالرّغم من سهرهم إلى ساعات متأخرة من اللّيل ذكورا وإناثا، إلاّ أنّه لم يلاحظ أي تجاوزات أخلاقيّة، ولعلّ هذا راجع إلى بنية هذا المجتمع الذي يقدس الأعراف والنظم الاجتماعية دون أي رادع .

وليس هذا فحسب بل إنّهم بقوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم في الزواج، إذ إنّه حينما تنكح المرأة وتزف إلى زوجها فإنها تحمل على الهودج وتزف إلى بيت العريس مع أغان و أهازيج محليّة، يقول في ذلك " وتم عرض زواج تقليدي تحمل العروس في هودج، ويتم أخذها إلى بيت العريس عن طريق الزغاريد التي تعبق الجو بروح التراث والمسرة والمحبة، وقد مثلت هذا الدور شابات سمراوات من أهل الصحراء "[31]. فهو مشهد أدّته فرقة فلكلوريّة عرضت من خلاله عادات وتقاليد الشّعب الصّحراوي في جانب من جوانب حياته دونما تكلف .

واللافت للانتباه أنّه وبرغم تعرض هذا البلد للاحتلال الإسبانيّ، إلاّ أنّه بقي محافظا على عاداته وتقاليده عكس الشعوب الأخرى "فثقافته أصيلة ظلت متماسكة وقوية في وجه كل التيارات الاستعمارية، فقد ظلت صامدة متحدية كل أوجه الاستلاب والتدمير "[32] ولعلي به هنا يشير إلى تمسك الصّحراويين بموروثهم الثّقافي الّذي عجز المستعمر عن طمس معالمه، خاصة ملبسهم وطريقة عيشهم، وتعاملهم مع بعضهم .

خاتمة:

في خاتمة هذا البحث المختصر عن الرحلة الجزائرية نصل إلى جملة من النتائج أهمها :

- الباحث في الرحلة الجزائرية يجد أعقد السبل و أوعر الطرق للوصول إلى المدونة الرحليّة، التي تشكل بالنسبة.للتراث الجزائري أعقد مدونة، فهي تحمل من الخصوصية ما يلزم الباحث أن يستخدم طرقا وآليات من أجل إجلائها، مع موقع الضبابيّة التّي تعانيها كونها مبثوثة في ثنايا الصحف المتآكلة، الضائعة الّتي يتعذر الوصول إليها إلاّ بشق الأنفس .

- يتميّز فن كتابة المذكرات بميزتين : علميّة وفنيّة، إذ تعدّ مصدر من مصادر الأدب الرّحلي وكذا مصدر من مصادر التأريخ، وفنا من فنون الأدب، لما يوفّره من مادّة متعدّدة للأجناس الأدبيّة.

- تتّخذ النّصوص الرّحليّة على اعتبارها جنسا أدبيّا مستقلا حيّزا معتبرا ضمن جل المذكرات الّتي كتبها أصحابها في العصر الحديث .

- تتفاوت النّصوص الرّحليّة فنيا بحسب مستويات كلّ كاتب، لأنّ كتابها لم يقتصروا على أرباب العلم والمعرفة، أو ذوي الشّخصيات الفذّة الّتي تملك من المواهب ما يؤهلها على التّدوين .

- يعدّ السّفر مصدر الأحداث، وملهم العواطف وفي الوقت نفسه ضرورة من ضروريات الحياة.

- تتداخل نصوص الرّحلة في العمل المذكراتي وفقا لسياق حديث الكاتب، لأنّ المذكرات في أساسها تدوين لأحداث عاشها كاتبها .

- ما خالف أدب الرّحلة الأثنوغرافيا هو تناوله للموضوعات عينها ولكن بأسلوب فنيّ رفيع يعتمد بلاغة التّعبير ورونق الكلام.

- تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص أهمها :

- هيمنة بنية السفر التي تؤطر الأحداث وتنظمها .
- حضور الذات حضورا بارزا .

- الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا .
- تعدد المضامين وتداخل الخطابات .

هوامش:

1 – المنجد في اللغة والأعلام : دار المشرق، بيروت،لبنان، ط40 ، 2003، ص " 253.

2 – يوسف وغليسي : في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية الجزائر، ط1، 2009 :ص277.

3– ايميل يعقوب، سيام حركة، مي شيخاني : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار المعارف للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 25.

4– شوقي ضيف :أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، دت:ص 07

5 – ينظر/عبد الحكيم بن عبد اللطيف الصعدي :الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ص 15.

6 – ديوان الأعشى : تحقيق ابراهيم محمد الرضواني، ج2، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر،ط1، 2010، ص 15 .

7 – ديوان طرفة : تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص24.

8 – ديوان الشافي: شركة الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت، ص: 10

9 – حسين فهيم :أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1989، ص 79.

10 – عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت :ص 349

11 – المنجد في اللغة والأعلام :دار المشرق بيروت لبنان، ط40، 2003، ص 12.

12 – فؤاد قنديل :أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب،القاهرة، ط2، 2002،ص: 21.

13 – ينظر /حسين محمود حسن : أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 07/06 .

14 – المرجع السابق : ص 26

15 – مقطع مأخوذ من إرسال للأستاذ عمران قدور، الأشكال النثرية التقليدية في الادب الجزائري الحديث، ص 09.

16 – فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي، ص : 21.

17 – عمران قدور : الأشكال النثرية التقليدية في الأدب الجزائري الحديث، ص : 10.

18 – عمر بن قينة : رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ط2009،2،ص 73.

19 – عبد الله الركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1983، ص 50.

20 – حسني محمد حسني : أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 86.

21 – شمس الدين أبو عبد الله المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، ص03/02.

22 – الخليل بن أحمد الفراهيدي:كتاب العين تح/ مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، ج4، 1980، مادة: غ ر ب.

23 – ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب، الدار المتوسطية للنشر والتوزيع، تونس، ج1، 2005، مادة : غ ر ب.

24 – حسان الجيلاني: عائد من الصحراء الغربية، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص : 38.

25 – المصدر السابق : ص 29.

26 – مالك بن نبي : مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، الجزائر، ط2، ص 37.

27 – المصدر نفسه: ص 196.

28 – المصدر نفسه، ص: 345.

29 – المصدر السابق، ص : 245.

30 – المصدر نفسه ، ص 30.

31 – المصدرالسابق، ص : 35.

32 – المصدر نفسه، ص : 44.